موقف المماليك من الصراع بين العثمانيين والصفويين

موضى تركي سهل العصيمي
باحثة دكتوراه كلية الشريعه قسم التاريخ جامعة ام القرى
moooody1411@hotmail.com

الملخص:

يعد الصراع العثماني الصفوي من أهم الأحداث التاريخية في القرن السادس عشر الميلادي، فقد تغير على إثره شكل منطقة الشرق الأوسط، واختلفت موازين القوى السياسية والمذهبية فيه، كما لم يؤثر هذا الصراع فقط على الأطراف المتشابكة فيه سواء العثمانيين أو الصفويين، بل امتد أثره إلى الدولة المملوكية في مصر بحيث انتهى الأمر بزوالها، وانتقال خلافة المسلمين إلى العثمانيين بعد أن كانت في القاهرة.

الكلمات المفتاحية: المماليك، الدولة العثمانية، الدولة الصفوية، موقعة جالديران، موقعة مرج دابق، موقعة الريدانية.

نبذة عن الدولة المملوكية:

دأب الخلفاء العباسيون على اقتناء المماليك ليكونوا لهم عضدًا، وقد تميز الخليفة المعتصم بالإسراف في ذلك فكانوا سببًا في بنائه مدينة سامرا، عام ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م [١]، وكذلك اقتدى بهم أحمد بن طولون الذي اعتمد عليهم ليكونوا دعامة لتثبيت حكمه في استقلاله بمصر [٢].

ودرجت الدول من بعدهم على هذا الفعل وأصبح التنافس بينهم حارًّا، لم تكن تعلم الدول السالفة أن المماليك المجلوبين من بيع وشراء، وأسرى حروب، سيقام لهم في التاريخ دولة، وتصبح حاكمة بعد أن كانت محكومة، ولا يهمّ أن حكموا هم أو غيرهم، المهم أن يكون خليفة الله في الأرض بأفعاله ويرث ويورث دينه.

بعد ذلك قامت الدولة الأيوبية في مصر ٥٦٧هـ/١١٧١م على أنقاض الدولة الفاطمية، وقد أصبح للمماليك سلطة قوية فيها [٣]، فقتلوا آخر حكامها وأقاموا لهم دولة يحكمونها سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م [٤].

استمرت دولة المماليك قرابة قرنين ونصف [٥]، انقسمت خلالها للمماليك البحرية وقد حكمت ١٣٤ سنة والمماليك البرجية، وحكمت ١٣٤ سنة [٦] في مصر وبلاد الشام والحجاز وأسدت خدمات جليلة للمسلمين، فقد تصدت لأكبر خطرين واجها العالم الإسلامي آنذاك وهما الصليبيين والمغول، بالإضافة إلى حمايتها للحرمين الشريفين إلى أن تسلمته منها الدولة العثمانية.

(١) (الأتابكي، ١٩٩٢م، ص٢٨٤، ٢٨٥).
(٢) (شاهين، إصلاح، ٢٠٠٦م، ص٥٤).
(٣) (طقوش، ١٩٩٩م، ص٢١).
(٤) (طقوش، ١٩٩٩م، ص٣٣).
(٥) (طقوش، ١٩٩٩م، ص٨).
(٦) (مهدي، ٢٠٠٨، ص١٥٣).

- **العلاقات المملوكية العثمانية:**

بدأت العلاقات المملوكية العثمانية طيبة، وتبادلت الدولتان الودّ والاحترام، وعهد السلطان مراد الثاني ٨٢٤هـ/١٤٢١م يضرب لنا المثل في ذلك فقدم التهنئة للحاكم المملوكي الجديد برسبابي الذي تسلم عرش السلطنة المملوكية عام ٨٢٧هـ/١٤٢٤م [٧].

واستمرت العلاقات على هذا المنوال حقبة من الزمن إلى أن وقع أحد أهم الأحداث في التاريخ الحديث وهو فتح القسطنطينية، فكانت فرحة غمرت قلوب المسلمين، وعندما تلقى الحاكم المملوكي الأشرف إينال برسباي ٨٥٧هـ/١٤٥٣م هذا الخبر فرح [٨].

ولكن بعد هذا الفتح الذي أتمه العثمانيون دبّت مشاعر الخوف في المماليك من جهة والغيرة من جهة أخرى، فخشي الممالك من أن تتبوأ الدولة العثمانية مكانتهم في العالم الإسلامي [٩]، وفي عهد السلطان بايزيد الثاني تجدر الإشارة إلى أن السلطان بايزيد (٨٨٦-٩١٨هـ/ ١٤٨١-١٥١٢م) قدم المساعدة لسلطان المماليك قنصوه الغوري في حربه ضد البرتغاليين [١٠]، لكن العلاقات المملوكية العثمانية قد توترت بعد ذلك، وبدأت تسوء شيئا فشيئا، إلى أن تعددت الصدامات بينهم [١١]. وكان هذا التوتر الذي ساد العلاقات العثمانية المملوكية راجع إلى عدة أسباب أهمها: إمارة بني ذي القادر (٧٤٠ هـ -٩٢٨ م) وهي العازلة بين الدولتين، إذ كانت تحتل خطا منحينا يفصل بين وسط الأناضول وشمال الشام، وكانت هذه الإمارة تستمد قدرتها على البقاء عبر مماشاة أحد الطرفين، مما كان يدعو لإثارة الفتن بينهما [١٢].

هذا بالإضافة إلى أنه حينما تسلم السلطان بايزيد الثاني عرش السلطنة قد دخل في صراع مع أخيه جم الذي لجأ للأشرف الغوري، وحجز الغوري لهدايا صاحب الهند التي بعثها السلطان بايزيد [١٣]، وتقارب الحدود المملوكية العثمانية عندما سيطر العثمانيون على إمارة ذي القدر، وسيطر المماليك على إمارة رمضان في قليقيا [١٤].

- **العلاقات المملوكية الصفوية:**

تخوف المماليك من توسع الدولة العثمانية ورغبتها في السيطرة على الحرمين الشريفين، لهذا سعى قنصوه الغوري للاتحاد مع الشاه إسماعيل الصفوي، للحد من نفوذ الدولة العثمانية في الشام، لكن قبل هذا كان السلطان سليم قد دعا قنصوه الغوري للتحالف معه للقضاء على الصفويين، خاصة وقت موقعة جالديران (٩٢٠هـ-١٥١٤م) لكن قنصوه الغوري لم يدعم العثمانيين في هذه الموقعة مما أدى إلى تدهور العلاقات أكثر بينه وبين العثمانيين [١٥].

وعندما بدأ الأسطول البرتغالي يرتاد الخليج العربي هدد الشاه إسماعيل الصفوي قنصوه الغوري حاكم المماليك بغزو بلاد الشام ليلفت انتباهه عن البرتغاليين الذين يريدون في ذلك الوقت اجتياح البحر

(٧) (طقوش، ١٩٩٩م، ص ٤٨٣).
(٨) (الأتابكي ،١٩٩٢م، ص ٥٠).
(٩) (طقوش، ١٩٩٩م، ص ٤٨٦).
(١٠) (صيرفي، ١٩٨٣م، ص١٠٥)
(١١) (أحمد ده، ٢٠٠٩م، ص ٥٤٨)
(١٢) (هريدي، ١٩٨٧م، ص٤٢)
(١٣) (أحمد ده ،٢٠٠٩، ص ٥٤٨)
(١٤) (طقوش، ١٩٩٩، ص ٤٨٨).
(١٥) (ياغي،١٩٩٦م، ص٥٩)

الأحمر عام ٩١٩هـ/١٥١٣م [١٦] فاحتار الغوري بين السلطان سليم والشاه إسماعيل، واختار الحياد ولم ينحاز لأي من الفريقين.

- **دوافع السلطان سليم لمحاربة المماليك:**

لم يكن هناك سبب واضح وفاصل يتفق عليه المؤرخون لتوجه العثمانيين صوب الدولة المملوكية فأكثر الاختلاف في أسباب الصدام بينهم، فمن جملة الأسباب:

أولًا:

لجوء علاء الدين ابن الأمير أحمد أخو السلطان سليم الأول لحاكم مصر أثناء الصراع على السلطة، كان ذلك الفعل مصدر إزعاج له [١٧]، وفي المقابل هرب قائد الأسطول المملوكي خوشقدم ومماليكه إلى السلطان سليم، وبالتالي أخذ يؤلب كل منهما على الآخر [١٨].

ثانيًا:

في عام ٩٢١هـ/١٥١٥م تنبأ السلطان سليم بحدوث خلاف بين أحد أبناء شاه سوار الذي انحاز إلى جانب السلطان سليم إلى جانبه وبين عمه علي دولات الذي أخذ الحاكم الغوري صفه، وبعد الصدام بين الخصمين وبعد انتهاء السلطان سليم من معركة جالديران، أرسل السلطان سليم قوات كبيرة استولت على بلاد علي دولات، فقتله وحز رأسه، وعين عليًّ باك بدلًا منه [١٩].

ثالثًا:

رغبة السلطان سليم الأول في أن تتزعم الدولة العثمانية العالم الإسلامي، خاصة أنه قد رأى الدولة المملوكية (القوة العظمى التي تنازعه هذه الزعامة) قد ضعفت وسُحب منها بساط التجارة التي كانت تنعم به، وتحركت التجارة في طريق رأس الرجاء الصالح بسبب الكشوف الجغرافية [٢٠]، وبدأ البرتغاليون يهددون لغزو الحرمين الشريفين [٢١]، ولم تعد الدولة المملوكية تقوى على مقاومتهم.

في الصدام الذي حدث في جالديران بين العثمانيين والصفويين فضل الغوري الوقوف على الحياد، وحصن حلب خوفًا من الدولة المنتصرة [٢٢].

عندما انتهى السلطان سليم الأول من معركة جالديران كان عليه التوجه للخطوة الثانية من خطته الاستراتيجية.

وبدأت اللعبة السياسية مع الملك الغوري المرابط في حلب، وكتب إليه رسالة من آق شهر يبلغه فيها بنيته لمعاودة الكرة على الصفويين لقطع دابرهم ووقف آفتهم ووصف له أحداث معركة جالديران وبطولات الجيش العثماني في جهاد الطائفة المنحرفة، وقد حررت الرسالة أواخر شهر رمضان عام ٩٢١هـ/١٥١٥م [٢٣].

ولم يكن السلطان سليم معاودًا الكرة على الصفويين، بل كانت خطته السير بالجيوش نحو دولة المماليك وكان خطابه لإبعاد الشك من الملك الغوري مظهرًا استمرار السلام بينهما.

---

(١٦) (الشيخ،٢٠٠٠م، ص ٢٥٨).
(١٧) (حليم بك، ١٩٨٨م، ص٧٩).
(١٨) (ابن أجا، ١٩٨٦م، ص ٢٣٢).
(١٩) (ابن أجا، ١٩٨٦م، ص٢٣٣).
(٢٠) (الشناوي، ١٩٧٧م، ص١٢٥).
(٢١) (بابكور،١٩٨٦م، ص٨٢).
(٢٢) (ابن أجا، ١٩٨٦م، ص٢٣٠).
(٢٣) (بيات، ٢٠١٠م، ص٣٦: ٣٧).

وردًّا من السلطان الغوري على رسالة السلطان سليم الأول كتب له رسالة يهنئه على النصر الذي أحرزه ضد الشاه والقزلباش، وشارك السلطان الفرح والسرور وبدأ الابتهاج في أقصى البلاد [٢٤].
وحصل المراد من رسالة السلطان بدليل خطاب التهنئة من الغوري الذي بادله نفس المشاعر دون خوف.

- **موقف سلطان المماليك الغوري من الصراع بين الصفويين والعثمانيين:**

وقبل الخوض في معركة مرج دابق علينا توضيح قضية المراسلات بين الشاه إسماعيل والسلطان الغوري التي كانت موضع اختلاف كثير من المؤرخين، أرسل الشاه عقب هزيمته يطلب من الغوري أن يتوسط له بالصلح عند السلطان سليم الأول أو يمنعه من عبور بلاده، فتقدم السلطان الغوري بهذا الطلب للسلطان سليم الأول فرفضه وعمد الغوري للرأي الثاني ومنع جنود السلطان من عبور أرضه [٢٥].

وكتب السلطان سليم الأول رسالة للسلطان الغوري يعاتبه على منع أبناء السبيل والتجار من عبور الأراضي المملوكية، فأبدى غرابة لهذا التصرف، وطمأن الغوري من ناحيته وأخبره أن توجهه للشاه إسماعيل [٢٦].

عندما كتب السلطان سليم الرسالة السابقة للغوري لم يكن يعلم حقيقة هذا التصرف، ولما علم أنها خيارات من الشاه إسماعيل للغوري اعتبر هذا العمل خيانة ومكرًا وتحالفًا مع الشاه ضده، بالإضافة إلى أنه قبض على جواسيس للغوري؛ وبذلك حرر السلطان له الرسالة التي يتهمه فيها باتباع المكر والاحتيال والنصب والتواطؤ مع الجواسيس كل ذلك ليقوي الشاه خصم السلطان [٢٧].

حقيقة كانت المراسلات بين الغوري والشاه إسماعيل موضع اختلاف كبير، حتى إن المؤرخ المعاصر للأحداث ابن إياس لم يسترسل في هذا الحديث الذي لم يكن ظاهرًا أمره آنذاك، واكتفى بقوله: إنه خبر سرى بين الغوري والشاه إسماعيل مشاع بين الناس ولم يظهر حقيقته [٢٨].

والأصل أن الغوري بادر أولًا بطلب الصلح بين الخصمين وبناءً على رفض السلطان سليم الأول قبل الغوري بالخيار الثاني، وقطع الطرق المملوكية ولم يكن تواطؤ الغوري مع الشاه بإمداده بالسلاح لضرب العثمانيين، ولم يكن يؤيده ويدعمه لقتل أهل البلاد المستضعفين، وإنما ظهر في معركة جالديران كما أراد على الحياد.

- **موقعة مرج دابق:**

بعد أن انتهى السلطان سليم من جالديران، توجهت الجيوش إلى دولة ذي القدر فانتصرت فيها جيوش السلطان، وبعد انتصاره أرسل رأس علي دولات للغوري الذي كان حليفًا له فتغيرت نظرته للسلطان بعد هذا التصرف.

وضم السلطان في طريقه إمارة ذي القدر والمناطق التي حولها، وأصبح الطريق مفتوحًا أمامه للمماليك [٢٩]، وأوهم السلطان سليم السلطان الغوري بالتفاوض للصلح وتبودلت السفارات بينهما التي تضمنت إرسال الهدايا لكل منهما، وأخيرًا أرسل الغوري سفارة بقيادة الامير مغلباي تؤكد رغبة السلطان

(٢٤) (بيات، ٢٠١٠م، ص٣٨، ٣٩).
(٢٥) (أحمد ده، ٢٠٠٩م، ص٦٦٤).
(٢٦) (بيات، ٢٠١٠م، ص٤٥).
(٢٧) (بيات، ٢٠١٠م، ص٤٦).
(٢٨) ابن اياس، ١٩٦٣م، ص٣٥).
(٢٩) (طقوش، ١٩٩٩م، ص٤٩٧).

الغوري في عقد الصلح، ولكن أساء السلطان سليم استقبال السفارة، وكاد أن يقتل مبعوث المماليك، عندها أيقن السلطان الغوري أن الصلح لم يكن في نية السلطان سليم وإنما هي طريقة أراد بها التحايل عليه[٣٠].

أعلن النفير العام للحرب ودبت الفوضى في البلاد، بل ومن الولايات من سبقت الأحداث وأيدت السلطان العثماني، وانشق عنه بعض الأمراء، وبدأت خيانة الوزراء السرية التي أضعفت الجيش المملوكي، وكانت خنجرًا طعنت به، وسهل زوالها[٣١].

وفي يوم الأحد الخامس والعشرين من رجب سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م، تقابل الجيشان في مرج دابق ودارت بينهم معركة طاحنة، وبدأت الخيانات تأخذ مجراها، ولهذا انهزم المماليك هزيمة قاسية، وتوفي الغوري ساقطًا عن جواده، تاركًا وراءه ما تبقى من أمور مملكته [٣٢] وانتهت الجولة الأولى مع المماليك ويبدأ السلطان سليم الاستعداد للجولة الثانية.

- **موقعة الريدانية:**

صعب الموقف على المماليك بعد وفاة حاكمهم الغوري والخصم سائر إليهم، فسارعوا إلى تنصيب طومان باي (ابن أخيه) عليهم عسى أن يحافظ على ما تبقى من أملاك الدولة المملوكية، رغم أنه كان يرفض تولي الحكم، ولكن اجتمعوا عليه دون جدوى[٣٣].

وقبل كل شيء وأهم شيء أن السلطان سليم طلب من المماليك إيقاف الحرب بشرط أن يُعترف به خليفة للمسلمين، ويخطب على المنابر باسمه، ويترك لهم ولاية مصر نيابة عنه وترسل ضريبة سنوية، ورفض المماليك هذا العرض وبشدة ومن هنا بدأت الجولة الثانية والأخيرة[٣٤].

حمل طومان باي على عاتقه الدفاع عن الدولة المملوكية مهما كلفه الأمر، وقام بإجراء الاستعدادات اللازمة وتقابل الجيشان بالقرب من الريدانية في أواخر شهر ذي الحجة عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م واستمر إلى أوائل محرم من عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م خاض الجيش المعركة وأبلى الملك طومان باي بلاءً حسنًا إلا أن جيشه تزعزع، مما اضطره للفرار من المعركة وألتفّ حوله بعض مماليكه[٣٥] محاولًا لم الشتات واسترجاع البلاد، ولكن السلطان سليم استمر في طلبه، وعند العثور عليه، سيق طومان باي للسلطان سليم وأحسن معاملته وبتدخل من وزراء المماليك الخونة السابقين تم شنقه عند باب زويلة، وكان ذلك في ربيع الأول من عام ٩٢٣هـ/١٥١٦م[٣٦].

فطويت صفحة المماليك ليفتح العثمانيون صفحة جديدة في تاريخ مصر وبلاد الشام وتبعتها الحجاز واليمن[٣٧].

(٣٠) (ابن اياس،١٩٦٣م، ص ٦٤).
(٣١) (ابن زنبل، ٢٠١٤م، ص٧٦).
(٣٢) (ابن اياس، ١٩٦٣م، ص٦٨-٧٠) .
(٣٣) (ابن إياس، ١٩٦٣م، ص١٠٣).
(٣٤) (ابن إياس، ١٩٦٣م، ص١٢٥).
(٣٥) (طقوش، ١٩٩٩م، ص٥٠٥).
(٣٦) (ابن إياس،١٩٦٣م، ص١٧٥،١٧٦).
(٣٧) الصاوى، ٢٠١٢م، ص٨٥).

الخاتمة:

خلاصة القول إن المماليك قد آثروا الحياد خلال الصراع العثماني الصفوي لعدة عوامل سياسية ومذهبية أبرزها:

١-العوامل السياسية: حيث كانت العلاقات الصفوية-المملوكية غير الطيبة، ولا تشجع قيام تحالف، بالإضافة إلى مساعدة العثمانيين للمماليك خلال مواجهة السلطان الغوري للأسطول البرتغالي.

٢-العامل المذهبي: كون المماليك سنة متحمسين لمذهبهم، بالتالي لا يقبلون التعاون مع الشاه الصفوي الشيعي ضد السلطنة العثمانية السنية المجاهدة ضد الفرنجة.

قائمة المصادر والمراجع:

١. ابن أجا، محمد محمود الحلبي، (١٩٨٦م)، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة يشبك بن مهيد الدوادار، ط١، دمشق، دار الفكر.

٢. ابن اياس، (١٩٦٣م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط٣، القاهرة، دار أحياء الكتب العربية.

٣. ابن زنبل، أحمد بن علي بن أحمد، (٢٠١٤م)، واقعة السلطان الغوري مع السلطان سليم، القاهرة، دار الوثائق القومية.

٤. الأتابكي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي، (١٩٩٢م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، بيروت، دار الكتب العلمية.

٥. الشناوي، عبد العزيز محمد، (١٩٧٧م)، أوربا في مطلع العصور الحديثة، ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

٦. الشيخ، عبد الرحمن عبد الله، (مايو-أكتوبر ٢٠٠٠م)، ثلاث وثائق برتغالية عن خطة للاستيلاء على العالم العربي في مطلع القرن السادس عشر، مجلة عالم المخطوطات والوثائق، جامعة الملك سعود، الرياض.

٧. الصاوي، محمد الصاوي، (٢٠١٢م)، الدولة العثمانية، القاهرة، دار طيبة.

٨. بابكور، عمر سالم، (١٩٨٦م)، حزام الأمن العثماني حول الحرمين الشريفين في القرن العاشر الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.

٩. بيات، فاضل، (٢٠١٠م)، البلاد العربية في الوثائق العثمانية النصف الأول من القرن ١٠هـ ١٦م، إسطنبول، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون الثقافة الإسلامية (إرسيكا).

١٠. حليم بك، إبراهيم، (١٩٨٨م)، تاريخ الدولة العثمانية العلية، ط١، بيروت، مؤسسة دار الكتب الثقافية.

١١. ده ده، منجم باشي أحمد، (٢٠٠٩م)، جامع الدول، تحقيق غسان على الرمال، مكة المكرمة.

١٢. شاهين، عبد الصبور، (٢٠٠٦م)، مصر في الإسلام، ط١، القاهرة، نهضة مصر.

١٣. صيرفي، نوال حمزة يوسف، (١٩٨٣م)، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، الرياض، دارة الملك عبد العزيز.

١٤. طقوش، محمد سهيل، (١٩٩٩م)، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ط٢، لبنان، دار النفائس.

١٥. مهدي، شفيق، (٢٠٠٨م)، مماليك مصر وبلاد الشام، ط ١، بيروت، الدار العربية للموسوعات.

١٦. هريدي، محمد عبد اللطيف، (١٩٨٧م)، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوربا، ط١، دار الصحوة، القاهرة.

١٧. ياغي، إسماعيل أحمد، (١٩٩٦م)، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض.

The position of the Mamluks on the conflict between the Ottomans and the Safavids

Modi Turkish Sahel Al-Osaimi
PhD researcher, Faculty of Sharia,
Department of History, Umm Al-Qura University

Abstract:
The Ottoman-Safavid conflict is one of the most important historical events in the sixteenth century A.D., as a result of which the shape of the Middle East region changed, and the balance of political and sectarian powers differed in it, as this conflict not only affected the intertwining parties, whether the Ottomans or the Safavids, but its impact extended to the state Mamlukism in Egypt, where it ended up with its demise, and the succession of Muslims to the Ottomans after it was in Cairo.

Key words: Mamluks, Ottoman Empire, Safavid dynasty, Battle of Chaldiran, Battle of Marj Dabiq, Battle of Ridaniya.